القتال.. كخيار نصر أو انتحار!

بقلم/ أنور بن قاسم الخضري

لم يؤمر الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– وأتباعهم –في بادئ نشأتهم كجماعة مستضعفة في بيئتها الاجتماعية ومحيطها السياسي– بالقتال؛ لأنَّ مِن شأن الدخول في صراع غير متكافئ القوى أن يجعل من أمر كهذا –مهما كانت عقيدة المحارب سليمة ونواياه حسنة– انتحارا بمعنى الكلمة، وإلقاء بالنفس إلى تهلكة محققة لا فائدة منها ولا مصلحة من ورائها. وكان الصبر والاستعانة بالله وكفُّ الأيدي هو التوجيه الأنسب لفئة مؤمنة هذا حالها. وفي حال أمكنها الخروج من قبضة الظلمة وسطوة المجرمين فإن الهجرة إلى حيث الأمن والعدل تكون خيارا آخر لكل قادر مستطيع؛ فإن لم يكن قادرا مستطيعا فله أن يأخذ بخيار آخر هو (التقية) بحيث يكتم إيمانه ويوافق قومه في ظاهر الأمر.. إذا خشي على نفسه الفتنة (العذاب).

هذه القضية من بدهيات الدعوة إلى الله تعالى، ومن المعلوم ضرورة لكل من استقرأ سيرة الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– كما عرضها القرآن الكريم، وسيرة النبي الخاتم –عليه الصلاة والسلام– وصحابته –رضون الله عليهم– كما سجلها علماء الأمة الأمناء.

ولكن هناك قضية أخرى مهمة حاضرة أيضا في هذه السير لمن تأملها؛ إنها محاولة الخروج من حالة الضعف وإيجاد منفذ للوصول إلى عناصر القوة المبثوثة في الأرض، لقلب المعادلة وتحقيق النجاح. فمجرد الاستسلام السلبي للواقع لا يعني حدوث معجزة خارجة عن السنن إذا لم يكن المؤمنون ساعين للتغيير بحسب جهدهم. وقد سجل القرآن الكريم حادثتين فَقَدَ فيها المؤمنون زمام المبادرة لأن الوقت لم يسعفهم، فانتهى الأمر بهم إلى الفناء على يد الطغاة المجرمين. الأولى لسحرة فرعون، الذين آمنوا في لحظة صدق وإخلاص، دون أن يكون لهم أي سبب للنجاة، مع ما كان لفرعون من تمام السلطة والهيمنة؛ فانتهى بهم الحال إلى القتل! والثانية للفئة التي آمنت بالغلام وأعلنت عن هذا الإيمان مباشرة، فما كان جزاءها إلا أن خُدَّت لها الأخاديد من قبل ملك ظالم وجنود مجرمين، فقص الله علينا خبرهم في سورة البروج!

الشيء ذاته كان سيحدث لبني إسرائيل عندما أراد فرعون القضاء عليهم كلية، بعد أن رأى أنهم يشكلون تهديدا عليه وعلى سلطته؛ لولا أنَّ الله تعالى أراد لهم النجاة لما قد أظهروا من الصبر. علما بأنَّ كثير منهم لم يدخل في دعوة موسى –عليه الصلاة والسلام، ولم يعلن إيمانه به؛ وهذا ما جعل العذاب منصبا على طائفة منهم دون طائفة. كما قال تعالى: ((فمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِن قَومِهِ عَلَى خَوفٍ مِن فِرعَونَ ومَلَئِهِم أَن يَفتِنَهُم وإِنَّ فِرعَونَ لَعَالٍ فِي الأَرضِ وإِنَّهُ لمِنَ المُسرِفِينَ؛ وقَالَ مُوسَى يَا قَومِ إِن كُنتُم آمَنتُم بِاللَّهِ فعَلَيهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُسلِمِينَ؛ فقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلنَا رَبَّنَا لَا تَجعَلنَا فِتنَةً لِلقَومِ الظَّالِمِينَ؛ ونَجِّنَا بِرَحمَتِكَ مِن القَومِ الكَافِرِينَ))، يونس: ٨٣– ٨٦.

إن الله تعالى يترك لعباده المؤمنين مسئولية التفكير والتخطيط والتدبير والعمل للخروج من سطوة الظلمة وسلطة الجبابرة وكيد الكفار. ولو أنه سبحانه نصر عباده بالمعجزات مع شروق أي رسالة ربانية لكان أتباع الرسل كثرا، فما أسهل الأمر وما أجمل المنتهى وما أقل الكلفة! غير أنَّ حكمة الله تعالى قضت بأنَّ يبتلي المؤمنين ويمحصهم، ويرتقي بهم

في التفكير والتخطيط والتدبير والعمل، لأنَّ المطلوب منهم ليس الوقوف على تحديات لحظة الإيمان الأولى، وتحدياتهم هم، بل على جميع التحديات التي سيواجهونها مستقبلا وهم يقومون بتكاليف الإيمان وإظهاره ونشره وتحويله لدولة رحمة وعدل للإنسانية جمعاء. فلو ركنوا للمعجزات لكسلوا وخملوا، ولأصبحوا جبرية، ينفون سنن الله الكونية: الطبيعية والاجتماعية، ولانكسروا أمام أول صخرة تواجههم دون معجزة إلهية!

وإزاء ذلك يجب أن يفكر المؤمنون في أسباب القوة التي تحقق لهم النجاة من بطش الطغاة الظلمة، والنجاح في مسيرة نشر الإيمان والتمكين له. وهذا يرتبط أساسا بمفهوم القوة وجوانب تجليها، ومن ذلك:

- **وجود المنعة:**

ومفهوم المنعة جاء في السيرة النبوية، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– يبحث عن من يؤويه ليبلغ دين الله ويقوم بمهمته الرسالية. وهي تعني حالة من الاستعصاء على العدو. ولا يمكن ذلك إلا بوجود طائفة مناصرة في أرضها، بحيث يكونون الكثرة الغالبة، أو الفئة المسيطرة، أو العصبة ذات الشوكة؛ ولا يكون ذلك إلا أن يكونوا مستقلين فيها بمواردهم المعيشية، ومصالحهم الخاصة، دون أن يلزم ذلك انقطاعهم عن محيطهم العام في المعاملات الإنسانية والعلاقات الدولية.

يقول ابن تيمية: "إنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لما كان بمكة مستضعفا هو وأصحابه، عاجزين عن الجهاد، أمرهم الله بكف أيديهم، والصبر على أذى المشركين؛ فلمَّا هاجروا إلى المدينة، وصار لهم دار عز ومنعة أمرهم بالجهاد، وبالكف عمن سالمهم وكف يده عنهم، لأنه لو أمرهم إذ ذاك بإقامة الحدود على كل منافق، لنفر عن الإسلام أكثر العرب إذ رأوا أن بعض من دخل فيه يقتل"[1].

- **كثرة الأتباع المناصرين:**

فالكثرة عامل مؤثر في أي صراع؛ بل هو عامل سنني طبيعي. لذلك لما أشار الله تعالى لانتصار الفئة المؤمنة القليلة في ظروف معينة، ربطه بالاستثناء الإلهي: ((بإذن الله[2]))، رغم أن جميع الأمور التي تحدث هي بإذن الله، ولكن ذلك إشارة لمعنى الاستثناء الذي يأذن الله به إظهارا لصف الحق. وبرغم ذلك، وللمعنى النفسي المستقر في النفس البشرية كانت البشرى الإلهية تتنزل على الفئة المؤمنة القليلة بإشراك الملائكة معهم في القتال بعدد كبير!

وذكر الله تعالى أصحاب الرسول –صلى الله عليه وسلم– بمعاناتهم إذ كانوا قلة: ((وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُم قَلِيلٌ مُّستَضعَفُونَ فِي الأَرضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُم وأَيَّدَكُم بِنَصرِهِ ورَزَقَكُم مِن الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ))، الأنفال: ٢٦. وربط بين القلة والاستضعاف. وامتن سبحانه على أهل مدين، على لسان نبيه شعيب –عليه الصلاة والسلام، بقوله: ((واذْكُرُوا إِذ كُنتُم قَلِيلًا فَكَثَّرَكُم))، الأنفال: ٨٦. لذلك قال أصحاب الرسول –عليه الصلاة والسلام– في غزوة حنين: لن نغلب اليوم من قلة! فدخل عليهم الإعجاب من هذا المعنى السنني، فوكلوا إليه: ((ويَومَ حُنَينٍ إِذ أَعجَبَتكُم كَثرَتُكُم)).

---

١ الصارم المسلول: ج١/٣٥٨.

٢ كما ورد في الآية: ٢٤٩ من سورة البقرة، والآية ٦٦ من سورة الأنفال.

ولو كان أحد مستغن عن الأتباع المناصرين، واجتماعهم على كثرتهم، لكان الرسول –عليه الصلاة والسلام– غنيا عن ذلك؛ بل قال تعالى له: ((وإِن يُرِيدُوا أَن يَخدَعُوكَ فَإِنَّ حَسبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصرِهِ وبِالمُؤمِنِينَ؛ وأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِهِم لَو أَنفَقتَ مَا فِي الأَرضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفتَ بَينَ قُلُوبِهِم ولَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَينَهُم إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ؛ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسبُكَ اللَّهُ ومَنِ اتَّبَعَكَ مِن المُؤمِنِينَ))، الأنفال: ٦٢– ٦٤.

– امتلاك العتاد:

والعتاد المقصود به ما يناسب كل فترة تاريخية، وما يناسب طبيعة المعركة ذاتها وميدانها. فعتاد الحروب القديمة لا يناسب عتاد الحروب المعاصرة؛ وعتاد الحروب البرية لا يناسب عتاد الحروب البحرية، كما أن عتاد الحرب مع قوة جوية ليس هو عتاد الحروب البرية والبحرية. أضف لذلك أن الحرب الإعلامية لها عتادها، كما للحرب الاقتصادية عتادها، كما للحرب الفكرية عتادها،.. وهكذا.

والعتاد في مفهوم المسلم يتسع باتساع عقيدته الإيمانية التي تجعل كل ما في الكون مسخرا له إذا هو أحسن توظيفه واستخدامه. بحيث تصبح التضاريس الأرضية والأحوال الجوية، ودواب الأرض وأشجارها، ومسالك الأرض الظاهرة وأنفاقها الباطنة، جزءا من عتاد المعركة.

وهذا يتطلب قدرا من التفكير والتأمل، والاستهداء بنور الله، والإفادة من التجارب والخبرات من تاريخ البشرية جمعاء.

ولقد أمر الله تعالى المؤمنين بإعداد العدة وإن لم يكونوا على موعد للحرب، لأن مجرد الإعداد رسالة للجاهزية: ((وأَعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ ومِن رِبَاطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وعَدُوَّكُم وآخَرِينَ مِن دُونِهِم لا تَعلَمُونَهُم اللَّهُ يَعلَمُهُم ومَا تُنفِقُوا مِن شَيءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيكُم وأَنتُم لا تُظلَمُونَ))، الأنفال: ٦٠.

ونبه سبحانه المؤمنين ألا يغفلوا عن أسلحتهم، وعددهم العسكرية، بحيث تظل جاهزيتهم القتالية في أرض المعركة مستعدة لأي هجوم مبغات: ((وإِذَا كُنتَ فِيهِم فَأَقَمتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلتَقُم طَائِفَةٌ مِنهُم مَعَكَ ولْيَأخُذُوا أَسلِحَتَهُم فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُم وَلتَأتِ طَائِفَةٌ أُخرَى لَم يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ولْيَأخُذُوا حِذرَهُم وأَسلِحَتَهُم وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَو تَغفُلُونَ عَن أَسلِحَتِكُم وأَمتِعَتِكُم فَيَمِيلُونَ عَلَيكُم مَيلَةً وَاحِدَةً ولَا جُنَاحَ عَلَيكُم إِن كَانَ بِكُم أَذًى مِن مَطَرٍ أَو كُنتُم مَرضَى أَن تَضَعُوا أَسلِحَتَكُم وخُذُوا حِذرَكُم إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا))، النساء: ١٠٢.

– وجود الحلفاء:

فحيثما وجد الظلم والبغي والعدوان وجدت كراهيته في نفوس الخلق. لذلك فإن معركة المؤمنين ضد الظالمين ليست معركتهم وحدهم، بل هي معركة كل إنسان يحب العدل بفطرته. فلو اقتضت مواجهة الظالمين أن يتعاون المؤمنون مع غيرهم –ممن يخالفهم المعتقد– لوجب عليهم التعاون لما فيه تحقيق البر والتقوى؛ ومعلوم أن العدل من أجل صور البر والتقوى. لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (لقد شهدت حلفا مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان، ما يسرني بمثله حمر النعم، أو قال: ما يسرني حمر النعم وأن أنقضه، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت).

والعاقل هو من يوظف أدنى الشرين للقضاء على أعظمهما، ويدفع أكبر المفسدتين ولو بارتكاب أصغرهما. غير أنَّ المهم أن يستطيع تمييز الأعظم من الأدنى والأكبر من الأصغر وفق تحليل صحيح. وهذا ما تختلف فيه الرؤى والعقول

مهما كان انتماؤها للإيمان وأهله. فقد رأى الإمام علي –رضي الله عنه– أنَّ قتل قتلة عثمان داعٍ للفتنة، ومع ذلك قاتل معاوية ومن معه، وقاتل الخوارج! فأنكر عليه في الأولى وأعين على قتاله في الثانية.

– وجود الشركاء:

إنَّ الله تعالى لم يخلق عباده منفكين عن بعضهم البعض في مصالحهم الدنيا كمجتمعات وأفراد، بل جعل حاجاتهم ومصالحهم لا تتم إلا بالاجتماع، ولذلك قيل: الإنسان مدني بالطبع. وجاءت الشريعة لانتظام جميع العلاقات بين بني البشر، في حال السلم أو الصلح أو الحرب. ولم يقطع المسلمون عبر تاريخهم علاقاتهم بأمم الأرض، ولا قطعوا السبل المفضية إلى تنقلاتهم واتصالاتهم وحركة التجارة والمعرفة بينهم. بل إن النبي –صلى الله عليه وسلم– جاء للاشتراك مع الآخرين وإشراكهم في هذه المصالح، بما قرره في كثير من قضايا المعاملات.

وحيث أن الشراكات تنشأ عن وجود المصالح والقواسم المشتركة فإنه ينبغي للمسلم أن يعزز هذه الشراكات إذا ما وجدت هذه المصالح والقواسم. كما فعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مع يهود المدينة بوثيقة المدينة، وكما شرع من بقاء أهل الذمة مع استخدامهم على أرض الخراج.

– تحييد ما يمكن من الأطراف:

فإن العاقل من يحيد أعداءه ليمضي في مسيرته البنائية دون أن تتعرض للتهديد الدائم والهدم المستمر. ومن هذا المنطلق قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عام الحديبية، حيث قصد زيارة المسجد الحرام للحج، لا يريد قتالا، فسمع بأنَّ قريشا خرجت معها العوذ المطافيل وقد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله ألَّا يدخلها عليهم عنوة، وأنَّ خالد بن الوليد قدم في خيل لهم إلى كراع الغميم: (يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فماذا تظن قريش؟! والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة)[٣]. وفي هذا الكلام رجاء منه –عليه الصلاة والسلام– أن تكون قريش على الحياد ولا يتعرضوا لمسيرته.

ومن حكمة تشريع الجهاد في الإسلام، أنَّ نصوص التكليف بالجهاد جاءت مواكبة لحركة المجتمع والدولة المسلمة وتحولات الواقع من حولها. ولو أنَّ التكليف بالجهاد جاء مع مطلع التنزيل لأضرَّ بحالة المؤمنين وجيش عليهم جميع القوى للقضاء عليهم، مع عجزهم عن القيام بمستلزمات التكليف.

وقد يكون التحييد عن ضعف كما يكون عن قوة؛ فهذا ذو القرنين الذي فتح الله به بلدانا وشعوبا ليصل إليها حكمه العادل، يرى في مواجهة يأجوج ومأجوج هلكة له ولمملكته، ويقف مساندا لشعب من شعوب الأرض لبناء سد يمنعهم من التمدد والإفساد في الأرض. يقول تعالى: ((حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا؛ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا؛ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا؛ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ

---

٣ رواه أحمد في مسنده، عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: رقم ١٨٩١٠.

انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفرِغ عَلَيهِ قِطرًا؛ فَمَا اسطَاعُوا أَن يَظهَرُوهُ ومَا استَطَاعُوا لَهُ نَقبًا؛ قَالَ هَذَا رَحمَةٌ مِن رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وكَانَ وَعدُ رَبِّي حَقًّا))، الكهف: ٩٣- ٩٨.

وهدف التحييد تركيز قوة الفئة المؤمنة باتجاه الخصم الأبرز، أو المهمة الأولى. لذلك سعى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لمصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة، أثناء حرب الخندق، وذلك على أن يرجعوا ومن معهم، وليكسر عن أصحابه شوكتهم حين رماهم العرب عن قوس واحدة!

وكما أنه ينبغي تحييد الخصوم (الأعداء) ينبغي تحييد المنافسين، الذين تدفعهم رغباتهم لقطع الطريق أو الدخول في رهان ضد مكاسب المقاتل. فإن المنافسة وإن بدت شريفة في منطلقاتها فقد تكون وضيعة في نهاياتها، حيث يجد المنافس نفسه خاسرا الرهان. ولذلك سعى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لتحييد عبدالله بن أبي بن سلول، وهو الذي كان يأمل أن يتوج ملكا على أهل المدينة ومن حولها.

قال ابن تيمية معلقا على قوله تعالى: ((لَتُبلَوُنَّ في أَموَالِكُم وأَنفُسِكُم ولَتَسمَعُنَّ مِن الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبلِكُم ومِنَ الَّذِينَ أَشرَكُوا أَذىً كَثِيراً وإِن تَصبِرُوا وتَتَّقُوا فإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزمِ الأُمُورِ))، في كتابه (الصارم المسلول)[٤]: "إن الأمر بالصبر على أذاهم وبتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكُنَّة، وإقامة حَدِّ الله عليهم عند القُدرَة، فإنَّه لا خلاف بين المسلمين أنَّا إذا سمعنا مشركا أو كتابيا يؤذي الله ورسوله فلا عهد بيننا وبينه، ووجب علينا أن نقاتله ونجاهده إذا أمكن ذلك"؛ وأضاف: "إنَّ هذه الآية وما شابهها منسوخ من بعض الوجوه، وذلك أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لما قدم المدينة كان بها يهود كثير ومشركون، وكان أهل الأرض إذ ذاك صنفين: مشركا أو صاحب كتاب، فهادن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من بها من اليهود وغيرهم، وأمرهم الله إذ ذاك بالعفو والصفح، كما في قوله تعالى: ((وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكُم مِن بَعدِ إِيمَانِكُم كُفَّاراً حَسَداً مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعفُوا واصفَحُوا حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأَمرِهِ))، فأمره الله بالعفو والصفح عنهم إلى أن يُظهِرَ الله دينَه ويُعِزَّ جُندَه؛ فكان أَوَّلُ العِزِّ وقعةَ بَدرٍ، فإنها أَذلَّت رقابَ أكثر الكُفَّار الذين بالمدينة، وأرهبت سائر الكفار"؛ ثم ذكر ما جاء في الصحيحين عن عروة عن أسامة بن زيد، وهي محل الشاهد: "أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ركب حمارا على إكاف على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد، يعود سعد بن عبادة، في بني الحارث بن الخزرج، قِبَلَ وقعة بَدرٍ. فسار حتى مَرَّ بمجلسٍ فيه عبدالله بن أُبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبي. وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدالله بن رواحة. فلمَّا غشيت المجلس عجاجة الدابةِ خمَّر ابن أُبي أَنفَه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا! فسلَّم رسول الله –صلى الله عليه وسلم، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن؛ فقال عبدالله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه! فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله.. فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك. فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون؛ فلم يزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– دابته، حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا سعد ألم تسمع ما قال أبو

---

٤ ج١/٢١٦- ٢١٨.

حباب؟)، يريد عبدالله بن أبي، قال: كذا وكذا.. قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعفُ عنه واصفح، فوالذي نزَّل عليك الكتاب لقد جاءَ اللهُ بالحقِّ الذي أُنزِلَ عليك ولَقَد اصطَلَح أَهلُ هذه البَحرةِ على أَن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلمَّا رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِقَ بذلك، فذلك الذي فَعَل به ما رأيت. فعفا عنه رسول الله".

والغاية من تحييد هؤلاء كما يقول ابن تيمية للتأثير الذي لهم على أتباعهم: فـ"مثلها مثل أقوام كانوا يعظمون أبا جهل، أو عبدالله بن أبي لرياسته وماله ونسبه، وإحسانه إليهم، وسلطانه عليهم، فإذا ذمه الرسول أو بين نقصه، أو أمر بإهانته أو قتله، فمن لم يخلص إيمانه، وإلا يبقى في قلبه منازعة بين طاعة الرسول التابعة لاعتقاده الصحيح، واتباع ما في نفسه من الحال التابع لتلك الظنون الكاذبة"[٥].

وقد حاول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يحيد يهود المدينة عن عداوته ومنافسته، حيث جعل يوافقهم فيما لما يؤمر فيه بمخالفتهم. وكان يتألف رؤوس الناس وزعماء القبائل بالمال حتى لا يقفوا ضد الإسلام وتمدده، فيعطيهم ما يحقق رضاهم بالمال. كل ذلك لأجل أن تستطيع مسيرة الإسلام التقدم والتمكن دون أن تعوق أو تحد العقبات من حركتها.

– وجود القائد والخطة:

لا ينجح أي فريق بدون قيادة تقوم على توجيهه في سبيل تنفيذ الخطة؛ والخطة هنا هي الخارطة بكل ما تتطلبه من احتياجات للوصول إلى الهدف، وفق جدول زمني، ومهام وأعمال، وخيارات وبدائل للمسارات. وكلما كانت القيادة حاضرة في الوسط الاجتماعي بكل عطائها الروحي والفكري والعاطفي والخبراتي كلما استطاعت أن تلمَّ حولها الأتباع المناصرين؛ وتمارس السياسة مع كافة الأطراف باقتدار يقوم على فهمها وفهم حساباتها ومعادلاتها، للتحالف مع بعضها، والمشاركة مع بعضها، وتحييد بعضها.

القيادة في العملية السياسية شخصية حاضرة في جميع القضايا، برؤاها وأفكارها وآرائها وقراراتها؛ سواء كانت قيادة فردية راشدة أو قيادة جماعية شورية. ولا يمكن أن تكون القيادة الفردية راشدة إلا في حالات استثنائية يكون فيها المجتمع المحيط بها راشدا بالأساس؛ لذلك تظل القيادة الجماعية الشورية هي الخيار الأسلم للمجتمعات الاعتيادية.

وكلما توفرت المعلومات والبيانات، وامتلكت القيادة رؤية واضحة، وقدرة على توظيف الطاقات والقدرات، واستشرافا صحيحا لمسارات الأحداث، ومرونة في وضع الخيارات والبدائل، كلما استطاعت وضع خطة عملية قابلة للتطبيق وناجحة بقدر كبير.

الصراع.. كلفة ونتائج:

الصراع ليس فرضا لازما، بل هو وسيلة لتحقيق غاية أعظم، وهدف أسمى، كرد العدوان ودفع البغي، أو رفع الظلم وإزالة الاستعباد، كل ذلك صيانة لكرامة الإنسان وحفظا لحريته. وفيما عدا ذلك (لا تتمنوا لقاء العدو)!

---

[٥] اقتضاء الصراط المستقيم: ج٢/١١٦.

فالصراع البشري مكلف، لا من حيث الوفيات التي تنشأ عنه، ولكن من حيث نتائجه الشاملة على الحياة البشرية. فحتى أولئك الذين يسلمون من القتل، أو الموت مرضا أو جوعا، أو الفتك بهم تعذيبا، أو الجراحات والتشوهات والإعاقات الدائمة، لن يسلموا من التشرد أو الفقر أو الحرمان، ومن الذكرى المؤلمة والأحزان، والحالة النفسية التي قد تنشأ عن الصراع أو ما خلفه الصراع من أضرار وأوضاع غير إنسانية.

بل يكفي الصراع كلفة أنه يؤسس للانتقام والعنف في الحالة الاجتماعية على مستوى أجيال؛ لأن الجراحات لا تندمل غالبا، وفورة الغضب مهما اختفت تحت الجلد تظل جمرتها مشتعلة في المشاعر.

من هنا نفهم لماذا جعل الشارعُ القتالَ هو الخيار الثالث والأخير في خيارات العرض التي تهدف إلى دعوة الدول والأمم الأخرى للإسلام، وليس الأول أو الثاني. فالعبرة ليست بقدرتك على حسم الصراع لصالحك آنيا بل بمقدار ما تؤسس من أرضية للقضاء على نتائجه وتبعاته المستقبلية. لذلك قال –عليه الصلاة والسلام: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)، رواه البخاري.

لذلك يمكن أن يكون خيار القتال خطوة صحيحة نحو الانتصار، ويمكن أيضا أن يكون خطوة صحيحة أيضا للانتحار.. وبينهما قرار!